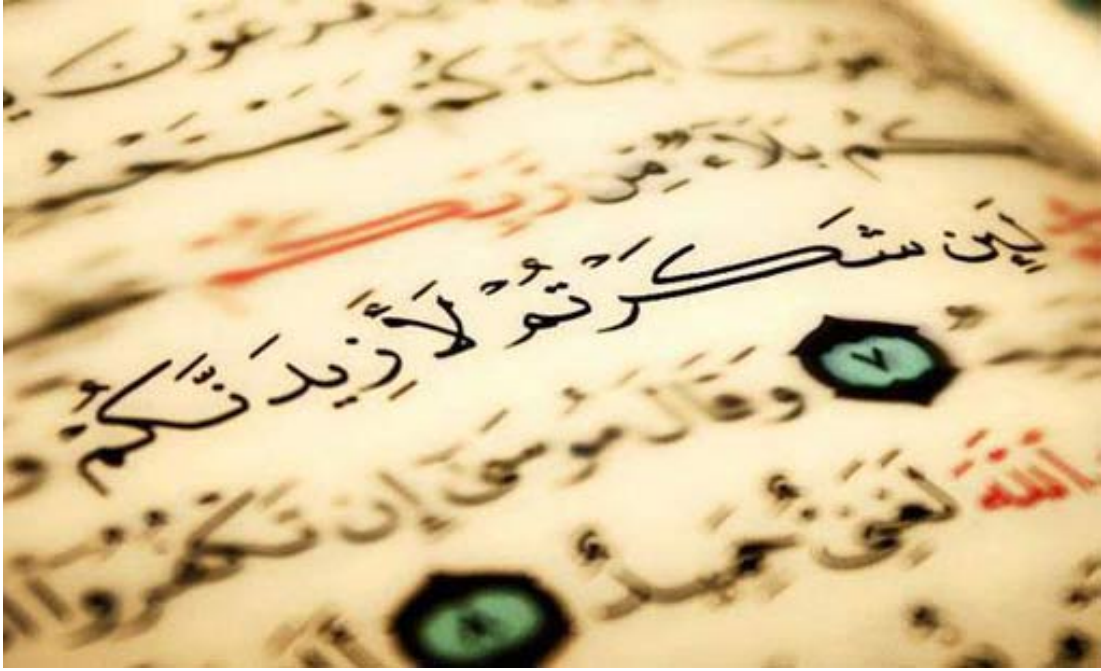


الذكر والشكر في كتابه تعالى



«يقول ﷻ تعالى في كتابه العزيز: (فَإِذْ كُفِّرُوكُمْ وَأَنذَرُوكُمْ ۖ وَاسْكُرُوا لِلَّهِ وَلَا تَكْفُرُوا) (البقرة/ 152). وهذه آية موجزة تشتمل على ثلاثة توجيهات عظيمة لو جعلها المؤمن نبراساً له في حياته لأضاءت له السبيل فسلكه آمناً مطمئناً دون أن يتعثر فيه:

فأول هذه التوجيهات قوله تعالى: (فَإِذْ كُفِّرُوكُمْ وَأَنذَرُوكُمْ) وذكر ﷻ تعالى على نوعين: أحدهما ذكره باللسان فقط، بينما القلب غافل عنه، والأعمال خارجة عن حدوده التي حددها، وقوانينه التي شرعها، وهذا ذكرٌ لا فائدة فيه، ولا ثواب عليه، وإنما هو وبال على صاحبه، من حيث أنَّهُ يقول ما لا يفعل ويتظاهر بأنَّه تقيٌّ صالح ليجعل بذلك شعاراً على أعماله الفاسدة، فيدخل في نطاق قوله تعالى: (كَذِبَرًا مَّقْتَتِلًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ) (الصف/ 3)، والنوع الثاني ذكر ﷻ بالقلب، أي أن يتمثل المرء عظمة ﷻ تعالى - وجلاله فيطيعه ولا يخالف أمره، فإذا ترطَّب اللسان مع ذكر الشعور القلبي بالذكر والتسبيح فذلك هو الذكر الحق، أو هو الصورة المثلّية للذكر الحق، ومن شأن صاحبه أن يستجيب ﷻ تعالى في كل موقف، وأن يسأل نفسه: ماذا عليّ أن أفعل وماذا عليّ أن أترك لأكون مطيعاً ﷻ، ذاكراً له، وبذلك يؤدي واجبه نحو ﷻ، ونحو الناس، ونحو

الوطن، ويكف عن مواقف الإثم والعصيان والتفريط، مستحيًا من الحق الحياء أن - يفقده حيث أمره، أو يراه حيث نهاه.

وقد أنبأنا الآية أن الذي يذكر الحق يذكر الحق، ومعنى ذكر الحق للعبد هو شموله برحمته ومعونته وتيسيره وتوفيقه، فإن العبد فقير إلى ذلك مهما كانت قوته، ومهما كان ذكاؤه واستعداداه، ومهما كان اجتهاده، بل ربما اجتهد الإنسان بفعل ما يضره وهو لا يدري.

إذا لم يكن عون الحق للفتى *** فأول ما يجني عليه اجتهاده

وهكذا يكون الذكر الحق تعالى حملاً وأماناً لصاحبه كما وعد جل شأنه.

التوجيه الثاني: قوله تعالى: (وَالشُّكْرُ لِلَّهِ).

وحقيقة الشكر: الثناء على المحسن بما أولى من المعروف، وليس هو أيضاً مجرد قول يلاك باللسان، وإنما هو مقابلة الإحسان بالإحسان، ولما كان الحق تعالى هو المحسن على الإطلاق، وهو المنعم على عباده بجميع النعم فإنّه يستحق شكرهم بمقتضى إحسانه وإنعامه، ولكنه مع هذا الاستحقاق قضى - رحمة منه بعباده وتفضلاً عليهم - أنّهم إذا شكروه شكرهم، وفي آية كريمة أخرى يقول جلاله: (لَتُكْرِمُنَّ شُكْرَ تُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ) (إبراهيم/ 7)، فطلب الحق تعالى لشكره إنما هو لفت للأنظار إلى نعمه، وفتح لأبواب من كرمه الإلهي لعباده (وَمَنْ شَكَرَ فَإِنِّي أَزِيدَنَّ شُكْرَهُ لَتَكْفُرَنَّ) (النمل/ 40).

وفي القرآن الكريم ما يدل على أن شكر الحق إنما يتحقق بالعمل لا بمجرد القول، فالحق تعالى يقول: (اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ) (سبأ/ 13)، فأمر بأن يكون شكرهم عملاً، فكل نعمة أنعم بها على الإنسان تستحق شكراً عملياً عليها فنعمة المال تقتضي الجود به في مواطن الجود والإحسان، ونعمة الصحة تقتضي بذل الطاقة والقوة فيما ينفع الناس، ونعمة الحياة كذلك، ونعمة العلم كذلك، ومن صن بشكر النعمة أو عصا بها فهو متعرض لأن يجردها عنهما.

أما التوجيه الثالث في هذه الآية، فهو قوله تعالى: (وَلَا تَكْفُرُون) وهو نهى للناس عن أن يكفروا بالله، أي يكفروا نعمه ويستروها ويكذبوا بها، ومن كُفِّر النعمة أن تجحد فضل أصحاب الفضل عليك؛ فإن رسول الله (ص) يقول: "لا يشكر الله من لا يشكر الناس" وفي هذا توجيه إلى أدب بمال من آداب

الاجتماع. ►

المصدر: كتاب القرآن/ نظرة عصرية جديدة